

حول كتاب الدكتور فانون :

« مُعَذِّبُوا الْأَرْضَ »

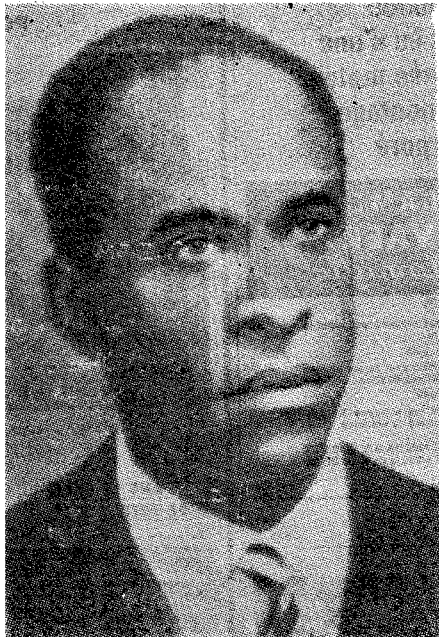
بقلم جان بول سارتر

الى خطب المرارة هذه المتأدبة . وقد أخذنا اولاً بدهشة مسحورة معتزة : كيف ؟ انهم يتكلمون من تلقاء أنفسهم ؟ انظروا مع ذلك ما الذي صنعنا بهم ! ولم نكن نشك في انهم يقبلون مثلنا الاعلى ، ما داموا يهتموننا بأننا لم نكن امناء له ، وعلى الاثر ، آمنت اوروبا برسالتها : فهي قد جاءت الاسيويين يونانيين ، وخلقت هذا الجنس الجديد : الزنوج اليونانيين اللاتينيين . وكنا نضيف ، فيما بيننا ، بدافع من روح عملي : ثم لندعهم يزعمون ، فان ذلك يعزيبهم ، ان الكلب الذي ينبح لا يعرض .

وجاء جيل آخر ، نقل ، كان المسألة . وقد حاول كتابه وشعراؤه ، بصير لا يصدق ، ان يشرحوا لنا ان قيمنا لم تكن تنسجم مع حقيقة حياتهم الا انسجاما رديئا ، وانهم لم يكونوا يستطيعون ان يطرحوها تماما ، ولا ان يتمثلوها تماما . وكان هذا يعني بالاجمال : انكم تجعلون منا مسوخا ، فان نزعتمك الانسانية تدعي اننا عالميون ، ولكن طرائقكم العنصرية تجعلنا خاصين كل الخصوصية . وكنا نستمع اليهم ، مرتاحين : ان حكام المستعمرات لا يؤجرون لكي يقرأوا هيفل ، وهم لهذا قلما يقرأونه ، ولكنهم ليسوا بحاجة الى هذا الفيلسوف ليعرفوا ان الضمائر الشقية كانت تتشوش بمتناقضاتهم . وتكون النتيجة انعدام الفعالية . اذن ، فلنظل شقاءهم ، فلن ينتج من ذلك الا الريح . وكان الاخصائيون يقولون لنا : لو كان ثمة ظل مطلب واحد في انيهم وشكواهم ، فانه سيكون مطلب

كانت الارض ، منذ عهد غير بعيد ، تعد مليارين من السكان ، منهم خمسمئة مليون من البشر ، ومليار وخمسمئة مليون من الاهالي ، وقد كانوا الاولون يمتلكون الكلمة ، بينما كان الآخرون يستعبرونها . وبين اولئك وهؤلاء ، كان ملوك صفار مباعون ، واقطاعيون ، وبورجوازية مزيفة ملفقة كلها ، يتولون دور الوستاء . وفي المستعمرات ، كانت الحقيقة تبدو عارية ، ولكن « المتربولات » كانت تفضلها كاسية ، وكان على ابن البلد ان يحب المتربول ، كما يجب امه ، على نحو ما . وباشرت النخبة الاوروبية صنع نخبة من الاهالي ، فكانت تختار مراهقين وتطبع على جباههم ، بالحديد الحامي ، مبادئ الثقافة الغربية ، وتكم افواههم بكلمات ذات ارنان ، كلمات كبيرة دقيقة كانت تلتصق باسنانهم ، وبعد اقامة قصيرة في المتربول ، كانوا يعيدونهم الى بلدهم ، مزوزين . ولم يكن ثمة ما يبقى لهؤلاء الاحياء الا كاذب ليقولوه لآخوانهم ، كانوا يرسلون الصدى ، ومن باريس ، ومن لندن ، ومن امستردام ، كنا نطلق كلمات : « بارتينون ! اخاء ! » فتنفتح في مكان ما بافريقيا واسيا شفاه تردد : « . . نون ! . . خاء ! » وكان ذلك هو العهد الذهبي .

وانتهى العهد الذهبي : ان الافواه تنفتح من تلقاء نفسها ، وكانت الاصوات الصفراء والسوداء ما تزال تتحدث عن بزعتنا الانسانية ، وانما كانت تفعل ذلك لتأخذ علينا لا انسانيتنا . وكنا نستمع في شيء من الاستياء



ما يزال الكاتب الفرنسي الكبير جان بول سارتر يدعم قضايا الحرية والتحرر في كل مكان ، حتى ليتمكن اعتباره بين الكتاب المعاصرين اثير نصير للحرية في العالم . وقد انفجرت في هذا الشهر قنبلة فوق بيته بباريس فهدمت شقة بكاملها ، ولكن سارتر لم يصيب باذى ، وليست هذه هي المرة الاولى التي يتعرض فيها لقتل بن جراه موقفه المشرف من قضية الجزائر . ونشر فيما يلي ترجمة للمقدمة الرائعة التي كتبها سارتر اخيرا لكتاب هام صدر حديثا في باريس ، وضودر على الاثر ، هو كتاب « معذبوا الارض » للدكتور فرانز فانون ، وفيه يتحدث عن الاستعمار الفرنسي في الجزائر حديثا وصف بائه اعرق ما كتب عن « الاستعمار » . وسيصدر هذا الكتاب قريبا جدا عن « دار الاداب » .

الدكتور فرانز فانون

في سيف ، وهانوي ومدغشقر ، ولكنه لا ينفق جهده في ادانتها : بل هو يفيد منها . وهو اذا كان يفضح طرائق الاستعمار ، واللعبة المعقدة للعلاقات التي توحد وتنصب المعمرين في وجه سكان المتروبول ، فانما يفعل ذلك من أجل اخوانه ، وغاياته في ذلك ان يعلمهم كيف يفسدون علينا لعبتنا .

وبالاختصار ، فان « العالم الثالث » يكتشف نفسه ، ويتحدث الى نفسه بهذا الصوت . ومعلوم ان هذا العالم ليس متجانسا ، وانه لا تزال فيه شعوب مستعبدة ، واخرى قد حصلت على استقلال مزيف ، واخرى قد كسبت الحرية الكاملة ولكنها تعيش تحت تهديد مستمر لغزو استعماري . وقد ولدت هذه الفروق من التاريخ الاستعماري ، يعني من الظلم والظفان . فهنا أكتفى المتروبول بشراء بعض الاقطاعيين ، وهناك فرق ليسود ، ففبرك بوجوازية مستعمرين ، وهناك ضربة مزدوجة : فجعل المستعمر موضوع استغلال واسكان في وقت واحد . وهكذا ضاعفت اوروبا الانقسامات والتعارضات ، وصنعت طبقات واحيانا عنصريات ، وحاولت بكل الوسائل والحيل ان تخلق طبقات متراكبة في المجتمعات المستعمرة وان تنميها . ولا يخفي فانون شيئا : فان على المستعمرة القديمة ، لكي تقاومنا ، ان تقاوم نفسها بالذات . او ان الامرين على الاصح ليسا الامرا واحدا . فلا بد لجميع الحواجز الداخلية ان تذوب في نار المعركة ، فيبورجوازية التجار المضاربين العاجزة ، وبروليتاريا المدن المتمتعة بالامتيازات دائما ، والعاقلون في المدن التنكية ، عليهم جميعا ان ينسجموا واوزاع الجموع الريفية التي هي المستودع الحقيقي للجيش الوطني والثوري ؟ ففي هذه المقاطعات التي اوقف فيها الاستعمار عمدا كل تنمية ، سريعا ما تبدو طبقة الفلاحين حين تثور هي الطبقة « الجذرية » : فهي تعرف الطفبان العاري ، وتعاني منه اكثر مما يعاني عمال المدن ، وللحيلولة دون ان تموت جوعا ، فهي بحاجة الى نسف جميع البنيات . فاذا انتصرت ، كانت « الثورة » الوطنية اشتراكية ، اما اذا اوقف اندفاعها ، واستولت البورجوازية المستعمرة على الحكم ، فان « الدولة » الجديدة تظل في ايدي الاستعماريين ، بالرغم من سيادة شكلية ظاهرة . وهذا ما يشهد عليه شهادة كافية مثل كاتانفا . وهكذا فان وحدة « العالم الثالث » لا تتم : انها مشروع للتحقق يمر ، في كل بلد بعد الاستقلال وقبله ، بتوحد جميع المستعمرين تحت قيادة طبقة الفلاحين .

وهذا ما يشرحه فانون لآخوته في افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية : فاننا سنحقق جميعا ، وفي كل مكان ، الاشتراكية الثورية ، او سنهزم واحدا بعد الآخر على ايدي طغائنا الاقدمين . انه لا يخفي شيئا ، لا جوانب الضعف ولا جوانب الخلاف ولا جوانب التضليل . وتأخذ الحركة هنا منطلقا سينا ، وهناك تفوتها السرعة بعد انتصارات ساحقة ، وهناك تقف تماما : فاذا اريد ان تستعيد سيرها ، فيجب على الفلاحين ان يلغوا ببورجوازياتهم الى البحر . ويحذر فانون القاريء تحذيرا قاسيا من التخليات والتناسلات الخطرة : من مثل قيام الزعامات ، وعبادة الاشخاص ، والثقافة الغربية ، ولا يقل عن ذلك خطرا عودة الماضي البعيد للثقافة الافريقية : ان الثقافة الحقيقية هي « الثورة » وهذا يعني انها تصنع على الحار .

ان فانون يتحدث بصوت عال ، ونستطيع نحن

الاندماج . وبالطبع ، لم يكن امر تحقيقه لهم واردا : والا لهدمنا النظام الذي يقوم ، كما تعلمون ، على الاستقلال في اقصى حدوده . ولكن سيكفي ان نلوح امام اعينهم بهذا الاغراء الخادع ، حتى يركضوا فرحين . وكنا مطمئنين كل الاطمئنان الى انهم لن يثوروا : فاي ابن بلد واع يبلغ به الامر ان يذبح ابناء اوروبا الجميلين لغاية واحدة هي ان يصبح اوروبيا مثلهم ، وبالاختصار فقد كنا نشجع هذه الألوان من الحنين ، ولم نجد ردينا ، ذات مرة ، ان نمسح زنجيا جائزة غوبكور . فان ذلك قبل عام ٣٩ .

١٩٦١ . اسمعوا : « لا نضع الوقت في ترديدات عقيمة او تقليدات مغيثة . بل لنندع هذه الاوروبا التي لا تني تتحدث عن الانسان فيما هي تعتله حيث وجدته ، في كل منعطف من منعطفات شوارعه بالذات ، وفي كل زوايا العالم . ها قد مرت قرون ... وهي تخنق ، باسم « مغامرة روحية » ، زعومة ، مجموع البشرية تعريبا . ان هذا الصوت جديد ، فمن الذين يجرو على النطق به ؟ افريقي ، انسان من « العالم الثالث » ، استعمرناه من قبل . وهو يضيف : « لقد اكتسبت اوروبا سرعة جنونه فوضويه بلغ من امرها ، انها تمضي نحو مهاو يحسن بنا ان نبتعد عنها » انها ، بعبارة اخرى ، هالكة . تلك حقيقة ليس جميلا ان تقال ، ولكننا جميعا ، لحمنا وجلدا ، مقتنعون بها ، ليس كذلك يا شركائي القاريين الاعزاء ؟

على انه لا بد من تحفظ هنا . فمثلا حين يقول فرنسي لفرنسيين اخرين : « اننا هالكون ! » - وهذا ما يحدث ، كما اعلم ، كل يوم تقريبا منذ ١٩٣٠ - فان ذلك يكون خطابا عاطفيا ، ملتها بالفضب والحب ، وفيه يضع الخطيب نفسه في مغطس واحد مع جميع مواطنيه . ثم يضيف عادة : « الا اذا ... » والقصود من ذلك واضح . فليس ثمة بعد خطأ يرتكب ، فاذا لم تتبع توصياته حرفيا ، فعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، تنهار البلاد . وبالاختصار ، فهذا انذار تتبعه نصيحة ، وهذه الاحاديث اقل ايلامسا ، لاسيما وانها صادرة عن ذاتية قومية متبادلة .

اما حين يقول « فانون » عن اوروبا بأنها تسعى الى حتفها ، فهو على العكس يقترح تشخيصا للمرض ، ولا يرسل صرخة انذار . ولا يدعي هذا الطبيب ادانة اوروبا ، بلا استثناء - فقد حدثت هناك معجزات - ولا يقدم لها وسائل الشفاء : وانما هو يقرر انها تحتضر . من الخارج ، معتمدا على العوارض التي استطاع ان يسجلها . اما معالجتها ، فلا : ان في رأسه هموما اخرى ، وسواء لديه ان تموت او تشفى . وكتابه من هذه الناحية ، مثير فاضح . واذا خطر لكم ان تتمموا ، مازحين ومنزعجين : « ما اعجب ما يصمنا به ! » فمعنى ذلك ان طبيعة الفضيحة تفوتكم : ذلك ان فانون « لا يصمكم » بشيء على الاطلاق ، ان كتابه - الملتهب بالنسبة لآخرين الى ابعد حدود الالتهاب - يظل بالنسبة لكم مثلولا ، ان الحديث فيه هو غالبا عنكم ، ولكنه لا يتوجه اليكم قط . لقد انتهت جوائز الفونكور للزوج ، وجوائز النوبل للصفير : فلن يأتي بعد ابدنا زمن المرشحين المستعمرين . ان « ابن بلد » سابقا ذا لغة فرنسية يطوع الآن هذه اللغة لمطالبات جديدة ، فيستعملها ويتوجه بها الى المستعمرين وحدهم : « يا اهالي جميع البلاد المتخلفة ، اتحدوا ! » واي سقوط هذا : لقد كنا ، بالنسبة للآباء ، المحاورين الوحيدين ، اما الابناء ، فانهم لا يعتبروننا حتى محاورين صالحين : بل نحن موضوعات الخطب . ان فانون بكل تأكيد يشير في معرض حديثه الى جرائمنا العظيمة ،

الاوربيين أن نسمعه، والدليل هو أنكم تمسكون هذا الكتاب بايديكم، أتراه لا يخشى أن تفيد قوات الاستعمار من صراحتة؟

لا. انه لا يخشى شيئا. ان طرقتنا بالية: هسي تستطيع احيانا أن تؤخر التحرر، ولكنها لا توقعه. ولا تتيخيل أن بوسعنا أن نقوم طرقتنا: ان الاستعمار الجديد، هذا الحلم الكسول الذي تحلم به المتروبولات، انما هو قبض ريح، ان « القوى الثالثة » غير موجودة، او انها البورجوازيات. - التنكية التي سبق للاستعمار ان نصيها للحكم. ومكيا فيلينا ضعيفة التأثير على هذا العالم المستيقظ جدا الذي فضح اكاذيبنا واحدا بعد الاخر. وليس امام العمر الا طريق واحد: القوة، حين يبقى له منها شيء، وليس امام ابن البلد الا خيار واحد: العبودية او السيادة. فما عسى ان يهم فانون ان تقرأوا كتابه او لا تقرأوه؟ فانما هو يفضح لاخوانه اساليب مكرنا القديمة، وهو واثق من اننا لا نمث غيرها قطع غيار. وهو لهم يقول: لقد وضعت اوروبا اقدامها على قاراتنا، فيجب ان نجرحها حتى تسحبها، واللحظة تناسبنا: فليس ثمة ما يحدث في بنزرت او اليزابيتفيل او الريف الجزائري الا وتعرفه الارض كلها، والكتل تقف متعارضة، تشمل كل منها الاخرى، فلنفد من هذا الشلل، ولندخل التاريخ، وليجعله دخولنا فيه عالميا للمرة الاولى، لنقاتل: فاذا لم نجد اسلحة اخرى، فسيكفينا صبر المدينة.

افتحوا، ايها الاوروبيون، هذا الكتاب، وادخلوا فيه، فبعد بضع خطى تخطونها في الظلام، سترون اجانب مجتمعين حول نار، فاقربوا منهم وأصفوا: انهم يناقشون المصير الذي يرصدونه لواقعكم التجارية وللمرتزقة الذين يدافعون عنها. وقد يرونكم، ولكنهم سيستمرون في التحدث فيما بينهم، حتى من غير ان يحفظوا الصوت. وهذه اللامبالاة تضرب القلب: ان الاباء الذين هم مخلوقات الظلام، مخلوقاتكم « انتم »، انما كانوا ارواحا ميتة، كنتم تنشرون عليهم النور، ولم يكونوا يتوجهون الا اليكم، ومع ذلك، فانكم لم تتكلموا الاجابة على هؤلاء الاشباح. اما الابناء، فيجهلونكم: ان نارا تضيئهم وتدفئهم، ليست هي ناركم. وسوف تشعرون، وانتم على مسافة محترمة، بأنكم متخفون في الظلام، ترتعدون: ان لكل دوره. وفي هذه الظلمات التي سينشق منها فجر جديد، ستكونون انتم الاشباح.

قد تقولون: ما دام الامر كذلك، فلنلق هذا الكتاب من النافذة. ما جدوى ان تقرأه ما دام لم يكتب لنا؟ يجب ان تقرأه لسببين:

الاول ان فانون يشرحكم لاخوانه ويفضح امام أعينهم كيف اصبحنا تائهين: فأفيدوا من ذلك لتكشفوا امام انفسكم حقيقتكم الموضوعية. ان ضحايانا يعرفوننا من جراحهم ومن حديدتهم: وهذا ما يجعل شهادتهم شهادة لا ترد. وحسبهم ان يطاعونا على ما فعلناه بهم حتى نعرف ما فعلناه بانفسنا. ا يكون هذا مجديا؟ نعم، ما دامت اوروبا تواجه خطر الموت الكبير. وقد تقولون ايضا: ولكننا نعيش في المتروبول ونسحب الفطائع. وهذا صحيح: فانتم لستم معميرين. ولكنكم لستم خيرا منهم. انهم روادكم، لقد ارسلتموه فيما وراء البحار، فأغنوكم، وكنتم قد حذرتهم: اذا اراقوا من الدم اكثر مما ينبغي، فانكم ستكروهم من أطراف شفاهكم، بالطريقة نفسها التي

تغذي بها ايه دولة « عصابة من المشاغبين و«ثري الفتن والجواسيس بدون قد ارسلتهم الى الحارج، ثم تنكرهم حين يقبض عليهم. وانتم، المشهورين بنزعتكم الحرة، والاساسيه، والدين تدفعون حب التعافه الى حد التصنع، نتظاهرون بنسيان ان لكم مستعمرات وان القتل فيها يجري باسمكم. وان فانون يكشف لرفاهه - ولاسيما لمن طوبوا منهم غربيين اكثر مما ينبغي - تضامن سكان المتروبول مع عملائهم المعمرين. فلتكن لكم شجاعة قراءته. لهذا السبب الاول انه يثير شعوركم بالعار، وان الشعور بالعار، كما يقول ماركس، هو شعور ثوري. وترون ابي انا ايضا لا يستطيع ان تحلى عن الوهم الذاتي. فاسا ايضا اقول لكم: « لقد فقدنا كل شيء، الا اذا... » وانا بوصفي اوروبيا، اسرق كتاب عدو، واتخذ منه وسيلة لشفاء اوروبا. فأفيدوا من ذلك.



وهذا هو السبب الثاني: اذا استبعدتم ثرثرات « سوريل » الفاشية، فستجدون ان « فانون » هو اول من يلقي النور مجددا، بعد انجز، على مولد التاريخ. ولا تحسبوا ان دما أحر مما ينبغي او تعاسات طفولة فد جعلت له ذوقا خاصا نحو العنف: فقصارى ما يفعله انه يجعل من نفسه ترجمانا للوضع. ولكن هذا يكفي لكي يؤلف، مرحله فمرحلة، الديالكتيك الذي يخفيه عنكم النفاق الليبرالي والذي انتجنا كما أنتجه هو تماما.

كانت البورجوازية في القرن الماضي تعتبر العمال حسادا أفسدتهم شهوات جنسنة، ولكنها اهتمت بادخال هؤلاء المتوحشين الكبار في جنسنا: فكيف تراهم سيستطيعون ان يبيعوا بحريه قوتهم في العمل الا اذا كانوا بشرا، وكانوا احرارا. فالنزعه الاسانية في فرنسا وانكلترا تدعي انها عالمية.

اما الوضع في العمل الاجباري، فنقيض ذلك تماما: فليس ثمة من عقد، وبالإضافة الى ذلك، فان التخويف واجب، واذن، فان الاضطهاد يبدو هنا. ان جنودنا، فيما وراء البحار، يطرحون جانبا العالمية المتروبولية، فيطبقون على الجنس البشري مبدأ « التمييز العنصري »: فما دام الانسان لا يستطيع ألا بالاجرام ان يجرّد شبيهه من ممتلكاته، او يستعبده او يقتله، فهم يشعرون، كمبدأ، ان المستعمر ليس شبيها بالانسان. وقد تلفت قوتنا الضاربة مهمة ان تحول هذا اليقين التجريدي الى حقيقة واقعة: فأعطي الامر بخفض سكان المستعمرة الى مرتبة القرد العليا ليبرر للمعمر ان يعاملهم معاملة الحيوانات. والعنف الاستعماري لا يكتفي من اهدافه بشل هؤلاء البشر المستعبدين، بل هو يعمل على تجريدهم من انسانيتهم. فلن يوفر ثمة شيء لتصفية تقاليدهم، ولاستبدال لغاتهم بلغاتنا، وهدم ثقافتهم من غير ان نعطهم ثقافتنا، وسوف يخلون من فرط الانهاك. فاذا ظلوا على مقاومتهم، بعد اساءة تغذيتهم وامراضهم، فان هناك الخوف ينجز العمل: وهكذا تصوب البنادق على الفلاحين، ويأتي مدنيون فيقيمون على أرضه ويقسرونه بالسوط على ان يحرقها

لهم . فاذا قاوم ، أطلق الجنود النار ، فاذا هو انسان ميت ، وادا خضع انحط ، فليس هو انسان ، وسوف يشقق الخجل والخوف طبعه ، ويهدمان شخصه . ويقود العمليه ، بختونه ، احصائيسون . وليس تاريخ « الخدمات البسيكولوجيه » حديثا . ولذلك غسل المح .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذه الجهود الكثيرة ، فان الهدف لم يبلغ في اي مكان . لا في الكونغو حيث كانت تعطع ايدي الزوج ، ولا في افغولا حيث كانت شفاه المستائين تنقب ، منذ عهد حديث ، لتغلق بالاقتال . وانا لا ادعي ان من المستحيل تحويل الانسان الى حيوان : وانما اقول ان ذلك لا يتم من غير انهاكه الى ابعد حد ، فالضربات لا تكفي قط ، بل لا بد من دفع سوء التغذية الى غاية المدى . انه الصجر ، مع الاستعباد . فحين نستعبد فردا من جنسنا ، نحفف من انتاجه ، وينتهي الامر بانسان القن ، مهما كان ما يقدم له ضئلا ، الى ان يكلف اكثر مما ينتج . ولهذا السبب ، يضطر المعمرون الى وقف التربيه في منتصفها : وتكون النتيجة ، لا انسانا ولا حيوانا ، وانما « ابن البلد » . وسواء كان اصفر او اسود او ابيض ، فهو ، في ذاته وسوء تغذيته ومرضه وخوفه ، ولكن الى حد ما فقط ، ذو خصائص واحدة : انه كسول ، منافق ، سارق ، يعيش من لا شيء ، ولا يعرف الا القوة .

ويا للمعمر المسكين : هذا هو تناقضه ينكشف . ان عليه كما يفعل الجن ، على ما يقولون ، ان يقتل اولئك الذين يسلبهم . وهذا في الواقع ليس ممكنا : الا ينبغي كذلك ان يستغلهم ؟ فهو اذا لم يدفع القتل حتى الابادة . واذا لم يدفع العبودية حتى التوحش ، فانه يفقد القدرة على العمل ، وتقلب العمليه بحيث ان منطقا لا يخطيء يفودها الى انتهاء الاستعمار .

وليس ذلك على الفور . فان الاوروبي يود باديء ذي بدء : لقد سبق له ان خسر ، ولكنه لا يلاحظ ذلك ، انه لا يعرف بعد ان الاهالي هم اهالي زيفون ، فهو اذا صدقناه انما يؤذيههم ليهدم او ليكبث الاذى الذي يكونه في انفسهم ، بحيث ان غرائزهم الشريرة لن تولد من جديد ، بعد ثلاثة اجيال . اية غرائز ؟ الغرائز التي تدفع العبيد الى قتل السيد ؟ فكيف تراه لا يعرف فيها قسوته الذاتية مرتدة اليه ؟ ووحشية هؤلاء الفلاحين المضطهدين ، كيف تراه لا يجد فيها وحشيته كعمر ، هذه الوحشية التي امتصوها بكل مساهمهم والتي لا يشفون منها ؟ ان السبب بسيط : فهذا الشخص الجبار ، المجنون بقدرته العظيمة ، وبالخوف من ان يفقدها ، لا يتذكر بعد جيدا انه كان انسانا : انه يظن نفسه سوطا او بندقيه ، وقد انتهى الامر به الى الاعتقاد ان استعباد « الاجناس الدنيا » يتم بتكليف ردود فعلها . انه يهمل الذاكرة البشرية ، والذكرات التي لا تمحي ، ثم ان هناك خصوصا هذا الذي قد لا يكون عرفه قط : اننا لا نصبح ما نحن ، الا بانكار ما فعلوه بنا انكارا صميميا جذريا . ثلاثة اجيال ؟ ان ابناء الجيل الثاني ما يكادون يفتحون عيونهم حتى يروا آباءهم يقتلون ، فاذا هم « مجرحون » على حد تعبير علم النفس التحليلي . ولدى الحياة . ولكن هذه الاعتداءات المتجددة بلا انقطاع ، بدل ان تدفعهم الى الخضوع ، تقدفهم في تناقض غير محتمل لا بد للاوروبي عاجلا او آجلا ان يدفع ثمنه . وبعد ذلك ، ليؤدبوا بدورهم ويروضوا ، وليعلموا العار والالم والجوع ، فان ذلك لن يخلف في اجسامهم الا غضبا بركانيا تساوي طاقته طاقة الضغط الذي يمارس عليهم . كنت

تقول : انهم لا يعرفون الا القوة ؟ بكل تأكيد . انها اولا لن تكون الا قوة المعمر ، ولن تلبث ان تصبح قوتهم ، وهذا يعني انها هي القوة نفسها مرتدة علينا ، على نحو ما تأتي صورتنا لتلقانا من اعماق مرآة . فلا يخدعنكم ذلك ، انما هم بشر ، بسبب هذا الغضب الجنوني ، وهذا الغيظ والحقد ، ورغبتهم الدائمة في قتلنا ، والتوتر الدائم في عضلاتهم القوية التي تخشى ان تنحل ، انهم بشر ، بسبب من العمر الذي يريدون بشرا للجهد ، وهم بشر في وجهه . ان حقدهم المجرد ، والذي ما يزال اعمى ، هو كنزهم الوحيد : ان « السيد » يخلقه لانه يسعى الى تخييلهم ، وهو يخفق في تحطيمه لان مصالحه توقفه في منتصف الطريق ، وهكذا يظل الاهالي المزيفون انسانيين ، بسبب قدرة المضطهد وعجزه للذين يتحولون - لديهم - الى رفض عنيد للوضع الحيواني . اما الباقي ، مفهوم ، انهم كسالى بكل تأكيد : هذا نوع من السابوتاج (التخريب) وهم كذلك منافقون ولصوص . ان اختلاساتهم البارعة تسجل بئذ مقاومة لا تزال غير منظمة . وهذا لا يكفي : ان هناك من يؤكدون انفسهم بان يرتموا ضد البنائين ، وايدبيهم عارية ، اولئك هم أبطالهم ، وهناك آخرون يجعلون انفسهم بشرا باغتيال الاوروبيين ، فيقتلون : وسواء اكانوا قطاع طرق ام شهداء ، فان تعذيبهم بعث الحماسة في نفوس الجموع المرهبة .

جموع مرهبة ، اجل : ففي هذه اللحظة الجديدة ، يتحول العدوان الاستعماري الى « ارباب » لدى المستعمرين . وانا لا اقصد بهذا فقط الخوف الذي يستشعروه امام وسائلنا القمعية التي لا تنفذ ، بل اقصد كذلك الخوف الذي يوحيه لهم غضبهم الهائل بالذات ، انهم محضرون بين اسلحتنا المصوبة اليهم ، وهذه الانفعالات المخيفة ، وتلك الرغبات في القتل التي تصعد من اعماق القلوب وقد لا يفهمونها دائما : لان هذا ليس اولا عنفهم « هم » ، وانما هو عنفنا نحن ، مرتدا ، ينمو ويمزقهم ، والحركة الاولى التي ياتيها هؤلاء المضطهدون هي ان يخفوا في اعماقهم الغضب الذي لا يعترف به والذي تشجبه اخلاقيتهم واخلاقيتنا ، والذي ليس هو مع ذلك الا آخر ملجأ لانسانيتهم . اقرأوا فانون : فستعلمون ان جنون القتل هو لاشعور المستعمرين الجماعي ، في زمن عجزهم . وهذا الغضب الهائل المكبوت ، يدور حول نفسه اذا لم ينفجر ، ويكتسح المضطهدين انفسهم . ولكي يتحرروا منه ، يبلغ بهم الامر ان يقتتلوا فيما بينهم : ان القبائل تقاتل بعضها بعضا لانها لا تستطيع ان تجابه العدو الحقيقي - وتستطيعون ان تعتمدوا على السياسة الاستعمارية لالهاب منافساتها ، ان الاخ حين يرفع المديه ضد اخيه ، يحسب انه يهدم مرة والى الابد الصورة المحترمة لذلهم المشترك . ولكن هذه الضحايا التكفيرية لا تهديء عطشهم الى الدم ، وهم لن يمتنعوا عن التوجه الى الرشاشات الا بان يجعلوا انفسهم ضالعين معنا : وهذا النزاع للانسانية الذي يدافعونه ، يمضون طوعا لتعجيل تقدمه ، فهم تحت نظر المعمر المرح ، سوف يتزودون ضد انفسهم بحواجز تفوق الطبيعة ، فينعشون تارة اساطير قديمة مريسة ، ويتقيدون تارة اخرى بطقوس رقيقة : وهكذا يفر المأخوذ من طلبه العميق بان يكبد نفسه اهواء مهووسة تشغله كل لحظة . انهم يرفضون : وهذا يشغلهم ، هذا يرفسي عضلاتهم المتوترة توترا مؤلما ، ثم ان الرقص يتمم سرا ، وبالخفية عنهم ، « الا » التي لا يستطيعون التطور بها ،

يعاملوا أحدا معاملة خاصة . هناك واجب واحد ، وهدف واحد : طرد الاستعمار « بجميع » الوسائل . وسوف يكون أكثرنا تبصرا مستعدين في آخر المطاف لقرار ذلك، لا يستطيعون الامتناع عن ان يروا في « تجربة القوة » هذه الانسانية ، الا بشرا متخلفين قد لجأوا اليها ليحصلوا على ميثاق للانسانية : فليعطوه باسرع وقت ممكن ، وليحاولوا انذاك ، بمشاريع سلمية ، ان يستحقوه . ان ارواحنا اللطيفة هي عنصرية .

وستجد هذه الارواح فائدة في قراءة قانون ، فهو يثبت بكل قوة ان هذا العنف الذي لا يرد ليس هو عاصفة غير معقولة ، ولا بعثا لغرائز متوحشة ، حتى ولا نتيجة للغيظ المنفل : وانما هو الانسان نفسه بعيد بناء نفسه . واعتقد اننا قد عرفنا هذه الحقيقة ، ولكننا نسيناها : ان آثار العنف لن تمحوها اية رقة او لطافة ، والعنف وحده هو الذي يستطيع ان يزيلها . وانما يشفى المستعمر من مرض العقدة الاستعمارية بطرد المعمر بالسلاح . وحين ينفجر غضبه ، يسترد شفافيته المفقودة ، ويعرف نفسه بمقدار ما يضعها ، ومن بعيد نعتبر خربه كانتصار البربرية ، ولكنها تعمل بنفسها على تحرير المقاتل تحريرا تدريجيا ، وتصفي في نفسه وخارج نفسه الظلمات الاستعمارية ، بصورة تدريجية . فهي ما ان تبدأ ، حتى تكون بلا هوادة . وعلى المرء ان يبقى مروعا او يصبح مروعا ، وهذا يعني ان يستسلم لتحللات حياة مزورة او يكتسب الوحدة التي ولد عليها . وحين يمس الفلاحون البنادق ، تمتع الاساطير القديمة وتنقلب المحرمات واحدا اثر واحد : ان سلاح المقاتل هو انسانيته . ذلك انه لا بد من القتل في الزمن الاول للتمرد ، وقتل اوروبي هو ضرب لعصفورين بحجر ، حذف لمضطهد ولمضطهد في وقت واحد : وانما يبقى رجل ميت ورجل حر ، وللمرة الاولى ، يحس الذي بقي حيا ، ارضا « وطنية » تحت باطن قدميه . وفي هذه اللحظة لا يتعد « الامة » عنه : فهي توجد حيث يذهب ، حيث يكون - وليس ابعد من ذلك ، انما تترج بحريته . ولكن جيش الاستعمار يتحرك ، بعد المفاجأة الاولى : فعليه ان يتحد والا فسوف يقتل . وتخف المنازعات القبلية ، وتميل الى الزوال : لانها اولا تضع « الثورة » موضع الخطر ، ولانها ، بصورة اعرق لم يكن لها من مهمة الا ان تحرف العنف نحو اعداء مزيفين . اما اذا بقيت قائمة ، كما هو الحال في الكونغو ، فذلك لانما يغذيها عملاء الاستعمار . وتبدأ « الامة » السير : فهي بالنسبة لكل اخ موجودة حيث يقاتل اخوان آخرون ، ان الاخوي هو الوجه الآخر من الحقد الذي يكونه لكم : انهم اخوة ، في ان كلا منهم قد قتل ، او يمكن بين لحظة واخرى ان يكون قد قتل .

وفانون يظهر لقرائه حدود « التلقائية » ، وضرورة « التنظيم » واخطاره . ولكن مهما كانت المهمة جسيمة ، فان الوعي الثوري يتعمق لمدي كل مرحلة من مراحل نمو العمل . وتزول آخر العقدة ، فمنذا الذي يستطيع ان يحدثنا عن عقدة « التبعية » لدى جندي من جنود « جبهة التحرير »؟ وحين يتحرر الفلاح من غشاوته يعرف ما هي حاجاته : صحيح انها كانت تقتله ، ولكنه كان يحاول ان يتجاهلها ، وهو يكتشفها الان كمطالبات مطلقة . وفي هذا العنف الشعبي الذي قاوم خمسة اعوام ، وثمانية اعوام كما فعل الجزائريون ، لا يمكن للضرووات العسكرية والسياسية والاجتماعية ان تتميز فيما بينها ، ان الحرب ، حتى ولو

والقتل الذي لا يجرؤون على ارتكابه . وفي بعض المناطق يعمدون الى هذا الملجأ الاخير : التملك . ان ما كان في الماضي عملا دينيا في بساطته ، نوعا من اتصال المؤمن بالقدس ، يجعلون منه سلاحا ضد اليأس والدل : ان الزار والجن واقدس المقدسين يحلون فيهم ، فيحكمون عنفهم ويبدرونه في ارتعاشات حتى النفاذ . وفي الوقت نفسه ، فان هذه الشخصيات العاليا تحميمهم : وهذا يعني ان المستعمرين يحتمون من الاستحواذ الاستعماري بمضاعفة الاستحواذ الديني ، وتكون النتيجة الوحيدة ، في آخر المطاف ، انهم يجمعون الاستحواذين وان كلا منهما يتعزز بالآخر . وهذا ما يحدث في بعض الازراض النفسية لدى مهلوسين يتعجبهم ان يهانوا كل يوم ، فيخيل اليهم انهم يسمعون ذات صباح صوت ملاك يهنئهم ، ولا يكون ذلك كافيا لوقف الشتائم : وانما هي تتخلل صوت التهنة . انه دفاع ، وهو نهاية مغامرتهم : ان الشخص ينقسم ويتحلل ، والمريض يسير نحو الجنون . وتستطيعون ان تضيفوا ، بالنسبة لبعض الاشخاص المختارين بدقة ، ذلك التملك الاخر الذي اشرت اليه آنفا : الثقافة الغربية . وربما قلت : لو كنا في مكانهم ، لفضلنا « الزار » على الاكروبول . حسنا : لقد فهمتم . ولكنكم لم تفهموا تماما ، لانكم لستم في مكانهم . لستم بعد في مكانهم . والا لادركتم انهم لا يستطيعون ان يختاروا : ولذلك فهم يجمعون . ان العالمين يعنيان تملكين : رقص طوال الليل ، وعند الفجر ، تزاحم في الكنائس لسماح القداس ، ويوما بعد يوم يتسع الخرق . ان عدونا يخون اخوانه ، ويضلع معنا ، وكذلك يفعل اخوانه . وهكذا تكون « الالهية » مرضا نفسيا يدخله المعمر الى ارض المستعمرين « وبموافقتهم » .

المطالبة بالوضع الانساني ، وانكاره في وقت واحد : ان التناقض هنا متفجر . وهو ينفجر فعلا ، وتعلمون ذلك علمي اياه . ونحن نعيش في زمن الانفجار : فحسب زيادة المواليد ان ينمي المجاعة ، وحسب القادمين الجدد ان يخافوا ان يعيش اكثر قابلا من ان يموتوا ، حتى يكتسح تيار العنف جميع الحواجز . ان قتل الاوروبيين يتم في وضع النهار في الجزائر وفي انغولا . انها لحظة ارتداد الاذى على فاعله ، المرحلة الثالثة للعنف : انه يرتد علينا فيضربنا ، ونظل كالماضي غير مدركين انه عنفنا نحن .

وبطل « التحرريون » مشدوهين : انهم يعترفون اننا لم نكن مؤدبين بما فيه الكفاية مع الاهلين ، وانه كان عدل واكثر حكمة ان نمنحهم بعض الحقوق في حدود الممكن ، انهم لم يكونوا يطلبون اكثر من ان نقبلهم جماعات متلاحقة في هذا النادي المغلق جدا ، والذي هو جنسنا : وهما ان هذا الانطلاق البربري الجنون لا يوفرهم اكثر مما يوفر المعمرين الاردياء . وينزعج اليسار المتروبولي : انه يعرف المصير الحقيقي للاهالي ، والاضطهاد الذي بلحقهم بلا هوادة ، فهو لا يدين تمردهم ، مدركا اننا انما قلنا كل شئء لنخلفه . ولكنه يفكر مع ذلك بان هناك حدودا : فلا بد ان هؤلاء المحاربين حرب عصابات حريصون على ان يظهروا فروسيتهم ، فتلك هي خير وسيلة لانبسات انهم بشر . وحيانا يلومهم ذلك اليسار بقوله : « انكم تبالغون ، ونحن لن نؤيدكم بعد » غير انهم لا يبالون بذلك : ان التأييد الذي يصيبونه لا غناء فيه . فمنذا ان بدأت حربهم ، ادركوا هذه الحقيقة الصارمة : اننا جميعا نساوي ما نحن اياه ، ولقد افدنا جميعا منهم ، وليس ان يشبوا شيئا ، وهم لن

اقتصرت على طرح موضوع القيادة والتبعات ، تقييم بنات جديدة ستكون اولى مؤسسات السلام . وهكذا ينشق الانسان حتى في التقاليد الجديدة ، التي هي بنات مستقبل لحاضر فظيع ، هكذا يصبح مشروعا بحق سوف يولد ، وهو يولد كل يوم معمدا بالنار ، فمع اخر معمر يقتل او يسفر او يهضم ، يزول جنس الاقلية ، مخليا المكان للاخوة الاشتراكية . وهكذا لا يزال غير كاف : فان هذا المقاتل يحرق المراحل ، وانتم تدركون انه لا يجازف بحياته ليكتفي بان يجد نفسه على مستوى الانسان « المتروبولي » العجوز . انظروا الى صبره : فربما حلم احيانا بديان بيان فو جديدة ، ولكن يجب ان تعتقدوا بان لا يعول على ذلك حقا: فهو فقير يكافح في بؤسه ضد اغنياء مسلحين تسليحا قويا ، وهو بانتظار الانتصارات الحاسمة ، وغالبا من غير ان ينتظر شيئا ، يرهق خصومه حتى الاشمزاز . وذلك لا يتم من غير خسائر مريعة ، فان جيش الاستعمار يصبح متوحشا ، فيعمد الى اعمال التطهير والتجميع والحملات التأديبية وقتل النساء والاطفال . وهو يعرف ذلك : ان هذا الانسان الجديد يبدأ حياته كإنسان من نهايتها ، وهو يعتبر نفسه ميتا بالقوة ، وسوف يقتل : وليس الامر قاصرا على انه يقبل التعرض للقتل ، بل هو من ذلك على يقين ، وهذا الميت بالقوة قد فقد زوجته واولاده ، وقد رأى عددا كبيرا من الناس يحتضرون حتى انه يفضل الانتصار على البقاء حيا ، سيفيد آخرون من النصر ، لا هو : فهو هجهد اكثر مما ينبغي . ولكن تعب القلب هذا هو مصدر شجاعة لا تصدق . فبينما نجد نحن انسانيتنا بعيدا عن الموت والياس ، يجدها هو بعد التعذيب والموت . لقد كنا نحن زارعي الريح ، وهو الذي كان العاصفة . انه يستمد من العنف ، الذي هو ابنه ، انسانيته كل لحظة ، لقد كنا بشرا على حسابيه ، وهو يجعل من نفسه انسانا على حسابنا . ولكنه انسان آخر : من نوع افضل .

وهنا يقف فانون : لقد ارشد الى الطريق : انه لسان حال المحاربين يطالب بالاتحاد ، وبوحدة القارة الافريقية ضد جميع المنازعات والتحيزات المحلية . وقد بلغ غايته . ولو كان يريد ان يصور تصويرا كاملا الحدث التاريخي لتصفية الاستعمار ، لوجب عليه ان يتحدث عنا: وليس هذا هو قصده . ولكننا حين نلحق الكتاب ، فانه يستمر فينا ، بالرغم من مؤلفه : ذلك اننا نشعر بقوة الشعوب النائمة ، ونرد عليها بالقوة . واذن ، فان هناك لحظة جديدة للعنف ، وهذه المرة ، ينبغي ان نعود الى انفسنا نحن ، لان العنف بسبيل ان يغيرنا بمقدار ما يتغير ابن البلد المزيف عبره . ولكن ان يقود افكاره كما يشاء ، شريطة ان يفكر طبعيا : ففي اوروبا اليوم ، المترنحة تحت الضربات التي توجه اليها ، في فرنسا ، وبلجيكا ، وانكلترا ، يعتبر اي شرود عن الفكر ضلوعا مجرما مع الاستعمار .

ولم يكن هذا الكتاب باية حاجة الى مقدمة ، لا سيما وانه لا يتوجه اليها . ومع ذلك فقد قدمت له ، لادفع الديالكتيك الى نهايته : فان الاستعمار يصفى عنا ، نحن الاوروبيين ايضا ، وهذا يعني ان العمر الكامن في كل منا ينتزع بعملية دامية فلننظر الى انفسنا ، ان كنا نملك الجرأة على ذلك ، ولتر ماذا يحدث لنا . يجب ان نواجه اولاه هذا المشهد غير المنتظر : تعرية

انسانيتنا . هذه هي انسانيتنا عارية تماما ، غير جميلة : انها لم تكن الا ايدولوجية كاذبة ، الا التبرير اللذيذ للسلب ، وقد كانت رقتها وحذقتها تغطيان اعتداءاتنا . واللاعنفيون يتمتعون بصحة جيدة : فليسوا هم ضحايا ولا جلادين ! كفى ! كفى ! اذا لم تكونوا ضحايا ، حين تكون الحكومة التي نصبتموها للحكم ، والجيش الذي خدم فيه اخوتكم ، قد قاما بلا تردد ولا ندم « بعملية ابادة جماعية » ، فانتم بلا شك جلادون . واذا اخترتم ان تكون ضحايا ، وان تتعرضوا ليوم او يومين من السجن ، فانما تختارون ببساطة ان تنسحبوا من اللعبة . ولكنكم لن تنسحبوا : فيجب ان تبقوا فيها الى النهاية . لقد آن لكم اخيرا ان تفهموا هذا : اذا كان العنف قد بدأ هذا المساء ، اذا لم يوجد الاستغلال والاضطهاد فوق هذه الارض فقط ، فربما كان باستطاعة اللاعنصف المعلن ان يهدى النزاع . اما اذا كان نظام الحكم كله ، بما في ذلك افكاركم اللاعنافية ، مكيفا باضطهاد يرجع عهده الى الوف السنين ، فان سلبيتكم لن تفيد الا في جعلكم منحازين الى جانب المضطهدين .

انتم تعلمون جيدا اننا مستغلون . وانتم تعلمون جيدا اننا اخذنا الذهب والمعادن ، تم البترول ، من « القارات الجديدة » واننا نقلناها الى المتروبولات القديمة . وحصلنا على نتائج ممتازة : قصور وكاتدرائيات وعواصم صناعية ، وحين كانت الازمة تهددنا بعد ذلك ، فان اسواق المستعمرات موجودة هناك لتخفيفها او تحويلها . واوروبا المتخمة بالثروات منحت حقوقا صفة الانسانية لكل سكانها فالانسان عندنا يعني المشارك في الذنب ، ما دمنا جميعا قد افدنا من استقلال المستعمرات . وقد انتهى الامر بهذه القارة السمينة الممتعة ان غرقت بما يسميه فانون بحق « النرجسية » . لقد كان كوكتو ينزعج من باريس « هذه المدينة التي تتحدث طوال الوقت عن نفسها . » واوروبا ، ما الذي تفعله غير هذا ، وهذا المسخ الفوق اوروبي ، اميركا الشمالية ؟ يا لها من ثثرة : حريسة ، مساواة ، اخوة ، حب ، شرف ، وطن ، الخ . . . ؟ ان ذلك لم يكن ينعنا من ان نتحدث في الوقت نفسه احاديث عنصرية ، زنجي قدر ، يهودي قدر ، « جرد » عربي قدر . وهناك اشخاص صالحون ، لبيراليون لطفاء - استعماريون جدد بالاجمال - كانوا يدعون ان هذا التناقض يصددهم ، وفي ذلك خطأ او نية سيئة : فليس ثمة ما هو اشد انسجاما لدينا من هذه النزعة الانسانية والعنصرية في وقت واحد ، ما دام الاوروبي لم يستطع ان يجعل من نفسه انسانا الا بان صنع عبدا ومسوخا ، وقد ظلت هذه الكذبة مفعنة ، مادامت « الاهلية » قائمة ، لقد كانوا يجدون في الجنس البشري افتراضا تجريديا بالعالمية الشمولية كانوا يستخدمونها لتغطية تطبيقات اكثر واقعية ، كان فيما وراء البحار عرق من البشر المتخلفين ربما استطاع بفضلنا بعد الف عام ، ان يبلغ وضعنا ، وبالاختصار كانوا يخلطون بين النوع والنخبة . اما اليوم ، فان ابن البلد يكشف حقيقته ، فيكشف نادينا المفلق ضعفه فورا : انه لم يكن لا اكثر ولا اقل من اقلية . وهناك ما هو اسوأ : فما دام الآخرون قد اكتسبوا انسانيتهم ضدنا ، فقد ظهر اننا اعداء الجنس البشري ، ان النخبة تكشف طبيعتها الحقيقية : وهي انها عصابة . وهكذا تفقد قيمنا الغالية اجنتها ، واذا نظرنا اليها عن كثب ، لم نجد قيمة واحدة لم تلتخ بالدم . واذا كنتم بحاجة الى مثال ، فتذكروا هذه الكلمات الكبيرة :

يستعمل قواه العقلية». ومن المفيد لهؤلاء العلماء ان يواصلوا تحقيقهم اليوم في أوروبا، ولا سيما في فرنسا. فلا بد اننا نحن ايضا مصابون منذ بضعة اعوام بالكسل العقلي: ان الوطنيين يغتالون قليلا مواطنيهم، فاذا كان هؤلاء غائبين، نسفوا بيوتهم وحارسهم. وليس ذلك الا بداءة: ان الحرب المدنية متوقعة في الخريف او في الربيع القادم. ومع ذلك، فان امخاخنا تبدو في حالة ممتازة: الا يكون سبب ذلك بالاحرى ان العنف، لعجزه عن سحق ابن البلد، يرتد على نفسه، ويتجمع في اعماقنا يلتمس له مخرجا؟

ان وحدة الشعب الجزائري تنتج تمزق الشعب الفرنسي: ففوق ارض المتروبول السابق، ترقص القبائل وتستعد للمعركة. لقد غادر الازهاب افريقيا ليقيم هنا: لان هناك غاضبين حقا يريدون ان يجعلونا ندفع من دمنا ثمن العار الذي اصابهم اذ هزمهم ابن البلد، ثم هناك الآخرون، جميع الآخريين، الذين لا يقولون اجراما وان كانت نفوسهم قريرة - فمنذا الذي نزل الى الشارع بعد بنزرت، وبعد عمليات التقتيل ليقول: كفى؟ - جميع الليبراليين ومتصليي اليسار المائع. ان الحمى ترتفع في نفوسهم كذلك، والغضب. ولكن كم هم مذعورون! انهم يقنعون غضبهم بالاساطير، وبالطقوس المعقدة. ولكي يؤخروا تصفية الحساب النهائي، وساعة الحقيقة، نصبوا علينا «ساحرا كبيرا» مهمته ان يبقينا في الظلام بأي ثمن. ولكن شيئا ما لم يؤثر، فان العنف الذي يطالب به البعض، ويكظمه البعض الآخر، يدور حول نفسه: فينفجر يوما في «متز» ويوما آخر في بوردو، ويمر يوما من هناك، وسوف يمر من هناك. وهكذا نسلك بدورنا، خطوة خطوة، الدرب الذي يؤدي الى حالة «الاهلية». ولكن كان لابعد،

ما اكرمها واسمحتها، فرنسا! نحن، الكرماء السخاء؟ وسطيغ؟ وهذه الاعوام الثمانية من الحرب الوحشية التي مات فيها اكثر من مليون جزائري؟ والتعذيب بالكهرباء؟ ولكن افهموا جيدا انهم لا يلوموننا باننا خنا لا ادري اية رسالة: لسبب بسيط، هو اننا لم تكن لنا اية رسالة، وانما الكرم نفسه هو الذي يوضع موضع التساؤل، ان هذه الكلمة الغنائية الجميلة ليس لها الا معنى واحد: النظام المنوح. فبالنسبة للناس الذين هم قبالتنا، الناس الجدد المتحررين، ليس ثمة شخص يستطيع او يملك امتياز اعطاء شيء لاجد. ان كل انسان يملك جميع الحقوق، على الجميع، وحين يتم صنع نوعنا الانساني ذات يوم، فانه لن يتحدد كمجموع سكان الكرة، بل كوحدة لانهاية للتبادل المشترك فيما بينهم. وانا اقف هنا، وسوف تنهون العمل بلا مشقة، حسبنا ان نواجه للمرة الاولى والاخيرة فضاءنا الارستوقراطية: انها تموت، فكيف تراها ستبقى حية بعد ارستوقراطية البشر المتخلفين الذين اوجدوها؟ لقد حدث منذ بضع سنوات ان معلقا بورجوازيا - واستعماريا - دافع عن الغرب فلم يجد الا ان يقول: «نحن لسنا ملائكة. ولكننا نحن، على الاقل، نشعر بالندم». فياله من اعتراف! لقد كان لغارتنا في الماضي عوامات اخرى: الباريتون، شارتر، حقوق الانسان، الصليب المعقوف. وقيمتها الان معروفة: وليس ثمة من يدعي بعد النجاة من الفرق الا بالشعور شعورا مسيحيا جدا بالذنب وهذه هي النهاية كما ترون: ان اوروبا يجر فيها الطوفان من كل جانب.

فما الذي قد حدث؟ حدث هذا بكل بساطة: وهو اننا كنا صناع التاريخ، فأصبحنا الان عبيده. لقد انقلب ميزان القوى، وتصفية الاستعمار قائمة على قدم وساق، وكل ما يستطيعه مرتزقتنا هو ان يحاولوا تأخير انجاز هذه التصفية.

وحتى هذه المحاولة ان تنجح الا اذا القت التروبولات بكل ثقلها، وان تجند كل قواها لمعركة خاسرة سلفها. وهذه القسوة الاستعمارية القديمة التي جعلت امثال «بوجو» يحرزون امجادا مشكوكا فيها، سوف نجدها في نهاية المعمورة قد تضاعفت عشرة اضعاف وظلت مع ذلك غير كافية. لقد ارسل جيش المجندين الى الجزائر، فمكث فيها سبع سنوات بلا نتيجة. لقد تغير معنى العنف، كنسنا نمارسه، ونحن منتصرون، من غير ان يبدو انه يعكر علينا حياتنا: لقد كان يحلل الآخريين، اما نحن، فقد كانت انسانيتنا تظل سليمة لم تمس، وكان سكان المتروبول، والنفع يوحدهم، يعمدون بالاخوة، والحب مجتمع جرائمهم اما اليوم، فان العنف نفسه، وقد حوشر من كل جانب، يرتد علينا عبر جنودنا، ويمتلكنا. ان الالية تنعكس والتطور يتقلب: فيؤلف المستعمر نفسه من جديد، ونحن نتحلل، غلاة وليبراليين، معمرين ومتروبوليين. وكان الغضب والخوف قد بدأ يتعريان، وظهرها ككشوفين في عمليات «صيد الجردان» في الجزائر. فاین هم المتوحشون الان؟ اين هي البربرية؟ ليس من شيء ناقص، حتى ولا التام - تام: فان صفارات السيارات توقع «الجزائر فرنسية» فيما يحرق الاوروبيون المسلمين احياء. ويذكر قانون ان بعض علماء النفس التحليلي كانوا يعبرون عن حزنهم تجاه اجرام الاهالي، ويقولون: ان هؤلاء الاشخاص يقتتلون، وليس هذا طبيعيا، لان مخ الجزائري لا بد ان يكون مخا متخلفا. وقرر آخرون في افريقيا الوسطى ان «الافريقي قلمما

دار الآداب تقدم

- زوربا
- نيكولاس كازنتزاي - ترجمة جورج طرابيشي
- العراب
- ماريو بوزو
- الموت السعيد
- البير كامو - ترجمة عايدة مطرجي ادريس
- القريب وقصص اخرى
- البير كامو - ترجمة عايدة مطرجي ادريس
- قصة حب
- اريك سيفال
- قصة اوليفر
- اريك سيفال
- الموت حيا
- بيار دوشين
- صورة الفنان في شبابه
- جيمس جويس - ترجمة ماهر البطوطي
- الجحيم
- هنري باربوس - ترجمة جورج طرابيشي
- الشوارع العارية
- فاسكو براتوليني - ترجمة ادوار الخراط
- الصخب والعنف
- وليم فوكنر - ترجمة جبرا ابراهيم جبرا

دار الآداب تقدم

جبرا ابراهيم جبرا

في رواياته الاربع

السفينة

*

صراخ في ليل طويل

*

صيادون

في شارع ضيق

*

البحث عن

وليد هسعود

لكي نصبح ابناء بلد تماما ، ان تكون ارضنا قد احتلها مستعمرون قدامى وان نموت جوعا . وهذا ما لن يحدث : كلا ، فان الاستعمار النهار هو الذي يملكنا ، وهو الذي لن يلبث ان يركبنا ، فارسا مدلا ومزهوا ، وهوذا « زارنا » ، وسوف تقتنعون ، وانتم تقرأون اخر فصل لقانون ان من الافضل ، في اسوأ لحظات البؤس ، ان يكون المرء ابن بلد على ان يكون هذا العمر الانف الذكر . فليس حسنا ان يكون موظف شرطة مضطرا لان يعذب عشر ساعات في اليوم : فان ذلك سيؤدي باعصابه الى الانفجار ، الا اذا منع الجلادون ، لمصلحتهم الخاصة ، من ان يعملوا ساعات اضافية . فحين يراد حماية معنويات الامة والجيش بصرامة القوانين ، فليس حسنا ان يحطم الجيش معنويات الامة ، ولا ان يضع بلد جمهوري التقاليد مئات الالوف من شبانه بين ايدي ضباط انقلابيين مغامرین .

ليس حسنا ، يماطني ، انتم الذين تعرفون جميع الجرائم المرتكبة باسمنا ، ليس حسنا حقا الا تنسوا ببنت شفة ، حتى ولا تجاه ارواحكم ، خشية ان تحاكموا انفسكم فتدينوها . انني اريد ان اصدق انكم كنتم في البدء تجهاون وبعد ذلك شككتكم ، اما الان ، فانتم تعرفون ، ومع ذلك تصمتون دائما . ان ثمانية اعوام من الصمت تحط الانسان . وبلا فائدة : فان شمس العنف المعمية هي اليوم في كبد السماء ، وهي تضيء البلد كله ؟ وتحت هذا الضوء ، ليس ثمة بعد ضحكة تنطلق صادقة الجرس ، وليس ثمة وجه لا يضع المساحيق ليقنع بها الغضب او الخوف ، وليس ثمة عمل لا يكشف اشمئزازنا ومشاركاتنا في الذنب . يكفسي اليوم ان يلتقي فرنسيان حتى تكون بينهما جثة . وحين اقول جثة . . لقد كانت فرنسا في الماضي اسم بلد ، فلنحاذر الا تصبح هذا العام اسم مرض نفسي .

اثرانا سنشفى ؟ نعم . ان العنف يستطيع ، كرمح اثنيل ، ان يلام الجراح التي احدثها . اننا اليوم مقيدون ، مذلون ، مرضى بالخوف ، في الدرك الاسفل . ومن حسن الحظ ان هذا لا يكفي للاستقرابية الاستعمارية : فهي لا تستطيع ان تنجز رسالتها التعويقية في الجزائر اذا لم تفرغ اولاً من استعمار الفرنسيين . اننا نتقهقر كل يوم امام المعركة ، ولكن نقوا اننا لن نتفادها : فان القتل بحاجة اليها ، انهم سيقتحمون صفوفنا ويضربون خبط عشواء ، وهكذا سينتهي عهد السحرة والتعاويد : فيجب عليكم ان تقاتلوا او تأسنوا في المعسكرات .

تلك هي اخر لحظات الديالكتيك : انكم تشجبون هذه الحرب ، ولكنكم لاتجروون بعد على ان تصرحوا بانكم متضامنون مع المحاربين الجزائريين ، فلا تخافوا ، اعتمدوا على العميرين والمرترقة : فسوف يساعدونكم على ان تقطعوا هذه الخطوة . واذا ذلك ، ربما تطلقون العنان ، وظهوركم الى الجدار ، لهذا العنف الجديد الذي يبعثه فيكم بعض الجرائم القديمة المعادة معكم . ولكن تلك ، كما يقال ، قضية اخرى . قضية الانسان . وانا على يقين من ان الزمن الذي سننضم فيه الى من يصنعون قصة الانسان ، يقترب رويدا رويدا .

جان بول سارتر

ترجمة سهيل ادريس